

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له و للشارح والسامعين :

السادسة والثمانون: التبرك بآثار المعظمين كدار الندوة ، وافتخار من كان تحت يده بذلك ، كما قيل لحكيم ابن حزام رضي الله عنه : بعث مكرمة قريش؟ قال : «ذهب المكارم إلا التقوى».

قال المصنف رحمه الله تعالى في كتابة المسائل الجاهلية : «**السادسة والثمانون**» أي من الخصال والأعمال التي كان عليها أهل الجاهلية «**التبرك بآثار المعظمين**»؛ التبرك : طلب البركة ، والبركة: هي النماء والزيادة . فكان من طرائق أهل الجاهلية طلب البركة بآثار المعظمين ، وآثار المعظمين: هي المواضع التي كان للمعظمين بها صلة؛ كجلوس أو مكث أو درس أو نحو ذلك . والمعظمين: أي من لهم مكانة في النفوس؛ لرئاسة أو لكرم أو خصال حميدة أو نحو ذلك . فكانوا يتركون بآثار المعظمين؛ أي يطلبون البركة للمكث عندها ، أو التمسح بها ، أو وضع حاجاتهم وأمتعتهم فيها ليبارك فيها .

قال : «**التبرك بآثار المعظمين كدار الندوة**»؛ دار الندوة كانت مجمعا للمعظمين عندهم من أعيانهم ورؤسائهم وكُبرائهم يتداولون فيها الآراء ويتشاورون ، وهي منتدى لهم ، فكان لها شأن .

قال: «**كدار الندوة وافتخار من كانت تحت يده بذلك**» افتخار من كانت تحت يده أي تحت يده دار الندوة بذلك أي يكون هذا الأثر المعظم تحت يده ، مع إن الآثار وتعظيمها باب فتنة على الناس وتعلق بها وطلب للبركة من جهتها ؛ وذلك لقرب النفوس من الدخول في الضلال والخرافة من خلال هذه الآثار.

قال : «**كما قيل لحكيم ابن حزام بعث مكرمة قريش**» كانت دار الندوة تحت يد حكيم بن حزام فباعها رضي الله عنه ، فلما باعها قيل له : بعث مكرمة قريش؟ أي أن هذه المكرمة وهي الأثر العظيم لا يفرط فيه ولا يضيع

بل يحتفظ به ، المحافظة على الآثار يحافظ عليه .

« قيل له بعت مكرمة قريش؟ قال: ذهبت المكارم إلا التقوى » وهذه كلمة عظيمة قالها رضي الله عنه في هذا المقام، قال « ذهبت المكارم » المكارم التي تُظن وترجى وتطلب من خلال الآثار أو من خلال أمور أخرى هذه كلها ذهبت ؛ أي أذهبها الله عز وجل بالإسلام ، إلا التقوى: أي إلا مكرمة التقوى كما قال الله عز وجل ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ، فالذي يريد المكرمة ويريد البركة ويريد الفلاح والعزة يطلبها بالتوجه إلى الله وبطاعة الله والقيام بعبادته سبحانه وتعالى ، لا بالتعلق بالآثار أو بالأوهام أو بالخرافات ، فكل ذلك لا يُطلب من جهته بركة أو مكرمة ، والمكرمة تُطلب بتقوى الله جل وعلا .

قال رحمه الله تعالى :

السابعة والثمانون: الفخر بالأحساب .

الثامنة والثمانون: الطعن في الأنساب .

التاسعة والثمانون: الاستسقاء بالأنواء .

التسعون: النياحة .

ثم ذكر رحمه الله تعالى هذه الأمور الأربعة من مسائل الجاهلية ، قد جمعها نبينا عليه الصلاة والسلام محذراً منها في حديث واحد ، حيث قال صلى الله عليه وسلم: ((أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة ، قال : والنائحة إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)) ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام هذه الخصال الأربعة من خصال أهل الجاهلية محذراً منها ، في الوقت نفسه أخبر عليه الصلاة والسلام أنها لا تُترك ، سيوجد في الأمة من يمارس هذه الأعمال التي هي من أعمال أهل الجاهلية .

قال : «الفخر بالأحساب» أي: التفاخر تفاخر الإنسان بحسبه ، أي أنا مثلاً يقول ابن فلان الذي يملك كذا أو الذي يرأس كذا أو الذي عنده كذا ويتفاخر بأحسابه من الأجداد والآباء والمآثر التي كانوا عليها ، "نحن كنا كذا، نحن كنا كذا ونحن عندنا كذا" تفاخر ؛ فهذا من أعمال الجاهلية ، من أعمال الجاهلية التفاخر بالأحساب ، بل كانوا يعقدون مجالس يتفاخرون فيها وينشئ عن تلك المجالس زيادة الأحقاد والضغائن والعداوات بينهم وبغي بعضهم على بعض وتسلط بعضهم على بعض ، كل ذلك ينشئ عن التفاخر والتعالي بين الناس ؛ فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك والتحذير منه .

قال : «الطعن في الأنساب» أي : طعن بعضهم في أنساب بعض ، كأن يقول : "أنت لا أصل لنسبك ، أو

أنت نسبك وضيع ، أو أنت من نسب ديني" أو نحو ذلك طعنًا في أنساب الناس بالازدراء والانتقاص والتحقير والتهوين من شأنهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع : ((إلا كلكم من آدم وآدم من تراب ، إلا لا فضل لأعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى)) والله عز وجل قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . فمن أعمال الجاهلية الطعن في أنساب الناس من أجل الازدراء والتحقير والانتقاص .

قال : «الاستسقاء بالأنواء» الاستسقاء: طلب السقيا ، بالأنواء: أي مواضع النجوم ، جاء في بعض الأحاديث ((الاستسقاء بالنجوم)) اعتقاد أن السقيا ونزول المطر ينزل بتأثير النجوم وأنها هي السبب والمؤثر في نزول المطر ، ولهذا كانوا إذا نزل المطر يقولون "مطرنا بنؤى كذا وكذا" كما جاء في الحديث قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، من قال :مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب، ومن قال مطرنا بنو كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب)) . فمن أعمال الجاهلية الاستسقاء بالأنواء؛ أي اعتقاد أو الظن أن الأنواء هي السبب في نزول المطر ، إذا ظن أنها سبباً في نزول المطر وأن الذي ينزل المطر هو الله ثم نسب إليها نزول المطر لظنه أن الأنواء سببٌ في نزول المطر فهذا من كفران النعمة ، أما إذا اعتقد أن الأنواء أو النجوم هي التي تنزل المطر فهذا من الشرك الناقل من الملة . والأنواء ليست سبباً لنزول الأمطار ، سبب نزول الأمطار رحمة الله جل وعلا ؛ رحمته بعباده وإقبال العباد عليه بالتوبة والإنابة والاستغفار كما قال عز وجل : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١] الأنواء ليست سبباً لنزول الأمطار ، سبب نزول الأمطار هو إقبال العباد على الله تائبين منيبين مستغفرين ، كما أن الذنوب والمعاصي والآثام سبب في تأخر نزول الأمطار أو في عدم نزولها ، فإن التوبة والإنابة والاستغفار سبب في نزول الأمطار ، ولأجل ذلك شرعت صلاة الاستسقاء ؛ أن يجتمع الناس يصلون ويدعون الله عز وجل ويستغفرون ، فلا يقال إن الأنواء سبباً ، هي أصلاً ليست سبب لنزول المطر ، لم يجعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لنزول المطر ، فنسبة المطر أو نزول المطر إليهما مع اعتقاد أن المنزل له هو الله تبارك وتعالى هذا كفران النعمة ، وإذا كان عن عقيدة في الأنواء ذاتها أو النجوم ذاتها فهذا كفر أكبر ينقل صاحبه من ملة الإسلام .

قال : «النياحة» ؛ النياحة : البكاء بصوت وعويل وتسخط وجزع على الميت وتعداد مآثره ومحاسنه بكاءً وشجباً وتسخطاً ، وأيضاً تكون النياحة بضرب الحدود وشق الجيوب وقطع الشعر تسخطاً وجزعا ، وهذا كله من أعمال الجاهلية ؛ كان إذا مات لهم ميت أخذوا يصيحون ويُسْمَعُ لهم عويلٌ وصياح وبكاء عالي وتسخط على الأمر الذي وقع وموت ميتهم ، وأيضاً يمزقون الثياب بقطع جيوبها ، ويضربون الحدود كل ذلك تسخطاً ، ويكثر هذا الأمر في النساء لضعف المرأة وقلة الصبر فيها ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في تنمة الحديث : ((والنائحة إذا

لم تتب))، الأمر يشمل حتى النائح لكن خص المرأة بالذكر بقوله ((والنائحة)) لأن هذا الأمر يكثر في النساء ، ولهذا الضعف الذي في المرأة مُنعت المرأة من زيارة القبور ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لعن الله زوارات القبور)) لأن المرأة ضعيفة ما تتحمل مثل الرجل .

قال : ((والنائحة إذا لم تتب)) إذا لم تتب من النياحة التي كانت عليها وماتت غير تائبة منها ((تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)) ؛سربال: أي ثياب تغطي جسمها من القطران ، والقطران هو النحاس المذاب يصلي الجسم صلياً ويحرقه ويغطي ثيابها ، القطران هو النحاس المذاب أو الزفت المذاب ، ((ودرع من جرب)) الدرع: هو الذي يغطي الصدر ، فتقام يوم القيامة على هذه الهيئة وهذا جزاء من جنس العمل ؛ لأنها لما حصلت لها المصيبة لم تصبر ولم ترضَ بالمقضي والمقدر ومسكت جيبها ومزقته ودرعها قطعت في المصيبة ، فعوقبت من جنس العمل ، قطعت درعها ومزقته فثكسى يوم القيامة كساءً هذه صفته ((تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)) .

قال رحمه الله :

الحادية والتسعون : أن أجل فضائلهم البغي ، فذكر الله فيه ما ذكر .

«أن أجل فضائلهم» أي أهل الجاهلية «البغي» ؛ أي أجل أمر يدعونه فضلاً لهم يتفاخرون به ويمدحون أنفسهم بفعله ويعُدُّونه في مآثرهم ، وعندما ينشئون القصائد والأشعار يعدونه في مقدمة مفاخرهم ومآثرهم البغي ؛ أي عدوان بعضهم على بعض ، عدوانا على الدماء وعدوانا على الأموال وعدوانا على الأعراض ، فهذا البغي يعدونه مفخرة ، وإذا أراد بعضهم أن يتفاخر وأن يعدد مآثره أو يعدد مآثر قبيلته أول ما يفتخر به البغي ، يقول "نحن الذين قتلنا من قبيلة كذا عدد كذا مثلاً ، ونحن أخذنا من نوقهم وإبلهم كذا وكذا" فيعدون بغيهم وعدوانهم على الأعراض والأموال والدماء مفخرةً ، ولهذا قال رحمه الله : «أن أجل فضائلهم البغي» ، وهذا يظهر عند التفاخر عندما تتفاخر القبائل وتعدد المآثر الذي هم عليها أبرز مفخرة عندهم البغي .

قال : «فذكر الله فيه ما ذكر» ذكر الله فيه أي في البغي ما ذكر أي من التحذير وبيان حرمة وأنه لا يحل ولا يجوز ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۚ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] ، فهذه أمور حذر الإسلام منها ونهى عنها ؛ أن يبغي أحدٌ على أحد ، لا يبغي عليه لا في مال ولا في عرض ولا في نفس ، البغي حرام ، ولهذا في حجة الوداع

قال عليه الصلاة والسلام : ((إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)) وأيضا في حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا إنما هن أربع)) يعني أمور خطيرة احذروها وتجنبوها ((ألا إنما هن أربع : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا)) ؛ قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ((لا تقتلوا النفس ولا تزنوا ولا تسرقوا)) هذه أنواع البغي ؛ البغي على الدماء «لا تقتلوا» ، البغي على الأعراض «لا تزنوا» ، البغي على الأموال «لا تسرقوا» ، فحذر عليه الصلاة والسلام من البغي بأنواعه ، اعتداء الإنسان على الآخر في نفسه أو في ماله أو في عرضه هذا مما جاءت الشريعة في التحذير منه أشد التحذير .

قال رحمه الله :

الثانية والتسعون: أن أجل فضائلهم الفخر ولو بحق ؛ فنهى عنه .

قال : «أن أجل فضائلهم الفخر» أي التفاخر ، فالفخر هو يعدونه عندهم في باب الفضائل أمرا مهما ، عندما يجلسون في تعداد الفضائل كلٌّ يفخر ، والفخر لا يخلو كما ألمح المصنف من حالتين : إما أن يكون فخر بحق ، أو بغير حق . فخر بحق : أي بأمر موجود وأمرٍ حصل يفخرون به . أو فخر بغير حق : باختلاق أمور يكذبون أنهم فعلوها أو حصلت لهم وهي لم تقع . ولهذا يقول رحمه الله : «أن أجل فضائلهم الفخر ولو بحق» أي ولو بأمر هو معدود من أعمالهم أو فعلوه أو وجد منهم ، فالفخر والتفاخر لا يجوز بل المطلوب هو التواضع وأن لا يفخر الإنسان على أخيه ، بل يتواضع سواء كان الفخر بحق أو بغير حق كل ذلك لا يجوز ، وهؤلاء كان من فضائلهم التفاخر .

قال رحمه الله تعالى :

الثالثة والتسعون : أن تعصب الإنسان لطائفته على الحق والباطل أمر لا بد منه عندهم ؛ فذكر الله فيهم ما ذكر .

ثم ذكر رحمه الله هذه المسألة وهي: التعصب الأعمى ، تعصب الواحد منهم التعصب الأعمى لطائفته وطائفته في أي أمر يكون منها ؛ حق أو باطل ، هدى أو ضلال ، لا يبالون طالما أنه من أفعال طائفته فهو يعده حقا ، غير متأمل أو متدبر أو متفكر فيه ، بل هو متعصب لطائفته تعصب أعمى .

قال رحمه الله : «أن تعصب الإنسان لطائفته على الحق والباطل أمر لا بد منه عندهم» يعني هذه أمور مسلّمة

عندهم لا ينفكون عنها ، كل واحد منهم متعصب لطائفته وإن فعلت طائفته ما فعلت ، فهو متعصب لها سائر على نهجها مقتفي آثار طائفته بقطع النظر عن كون الأشياء التي تمارسها طائفته حق أو باطل هدى أو ضلال .

قال رحمه الله تعالى :

الرابعة والتسعون: أن من دينهم أخذ الرجل بجرمة غيره ، فأُنزل الله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأعام: ١٦٤]

«أن من دين أهل الجاهلية أخذ الرجل بجرمة غيره» وهذه من جاهلية هؤلاء ، فمثلا لو أن رجلا من قبيلة اعتدى على رجل آخر من قبيلة أخرى فقتله ، من جاهلية هؤلاء أنهم لا يأخذون القاتل نفسه والمعتدي نفسه بجرمته فيعاقب بمثل ما عاقب به ، بل لا يقنعون بالقاتل نفسه فيطلبون مثالا رأس رئيس القبيلة أو كبيرها ، أو يطلبون بدل ذلك عشرة من أعيان القبيلة ، وهؤلاء ما ذنبهم ؟! ما ذنب هؤلاء العشرة!! أو ما ذنب رئيس القبيلة!! أو ما ذنب الوجهاء في القبيلة عندما يطالب بدمهم ويُقتلون مقابل أن واحد منهم اعتدى !! فهذه من الجاهلية ، العدل والإنصاف والحق أن المعتدي الظالم الباغي هو الذي يعاقب ، أما الآخر الذي لم يحصل منه بغي ولا عدوان بأي حق يعاقب؟

ولهذا قال رحمه الله : «فَأُنزل الله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾» لا يؤاخذ الإنسان بذنوب الآخرين إذا لم يكن هو المتسبب أو الفاعل أو المباشر ، فجاء الإسلام بقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ . فمن جاهلية هؤلاء أخذ العقوبة من غير المعتدي ، وهذا الأمر يحصل في الناس وعند السفهاء ، حتى في نطاق يعني ضيق بين الجهال والسفهاء من صغار السن ، عندما يعتدي صغير على صغير بضربه يذهب ويضرب إخوانه ؛ هذا من نوع جاهلية أولئك ، لأن ما علاقة الآخرين باعتداء شخص! العقوبة إذا أنزلت تنزل بالمعتدي نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

الخامسة والتسعون: تعيير الرجل بما في غيره ، فقال ((أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية)).

قال : «تعير الرجل بما في غيره»؛ التعيير : هو الانتقاص للإنسان وذكر العيب فيه ، والله سبحانه وتعالى قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ

يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ [الحجرات: ١١] . فكان من جاهلية هؤلاء في باب التعيير أن يعيروا الشخص بما في غيره ، ليس فقط يعيرونه بما فيه من الصفات بل يعيرونه بما في غيره .

وضرب رحمه الله مثال على ذلك «قال أعيرته بأمه؟» عندما قال أحد الصحابة لآخر «يا ابن السوداء» غضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ((أعيرته بأمه؟ إنك امرئ فيك جاهلية)) لأن هذا من خصال الجاهلية تعيير الإنسان بما في غيره ؛ هذا من خصال الجاهلية التي جاء الإسلام بالتحذير منها والنهي عنها ، لا يعيّر الإنسان ، والتعيير سخرية وتهكم بالآخرين يمنع منه ، وإذا كان تعيير بما في الغير لا بما في الإنسان فهذا أشنع وهو من أعمال أهل الجاهلية .

قوله عليه الصلاة والسلام ((إنك امرئ فيك جاهلية)) فيه دليل على أن المسلم قد يقوم فيه شيء من خصال الجاهلية ولا يكون كافراً بها بل ينقص إسلامه ، تكون سبباً في نقص إسلامه ، وهذا يقال في كل عمل من أعمال الجاهلية ليس كفرًا ، مثل ما سبق معنا : الفخر في الأحساب ، والطعن بالأنساب ، والنياحة على الميت ؛ هذه من كبائر الذنوب وليست كفرًا ، فإذا وقعت من الإنسان يكون بوقوعه فيها فيه جاهلية ينقص بها إيمانه ويضعف دينه ، ولا يكون بها كافراً منتقلاً من ملة الإسلام .

قال رحمه الله :

السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت ؛ فذمهم الله بقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] .

قال: «السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت» أي تولي أمر بيت الله الحرام من عناية بالبيت ونظافته وصيانه ونحو ذلك من الأعمال ، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] ، فيفتخرون بولاية البيت «فذمهم الله بقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾» لماذا ؟ لأنهم جعلوا ولاية البيت هي عملهم الصالح وتركوا طاعة الله ولزوم أمره والقيام بعبادته تبارك وتعالى وتحقيق الإيمان به ، وأخذوا يتفاخرون بهذا الأمر ويستكبرون وهم معرضين عن طاعة الله تبارك وتعالى .

ولهذا يقول المصنف : «فذمهم الله بقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾» ؛ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْنَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ فلاحظ هنا السياق: استكبار وافتخار بولاية البيت ، وإعراض عن كتاب الله عز وجل وطاعة الله وامتنال أمره تبارك وتعالى

التي فيها سعادتهم ، ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكصُونَ ﴾ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿ أي لم تقبلوا على الكتاب ولم تقبلوه بل كنتم على أعقابكم تنكصون ، ثم في الوقت نفسه عندكم استكبار "نحن كذا ، نحن الذين عندنا كذا ، نحن الذين تولينا كذا ، نحن أهل السقاية ، نحن أهل الرعاية للبيت" مستكبرين به سامرا تهجرون ، آيات الله تتلى عليهم لا يتدبرونها ولا ينصاعون لها ولا يتمثلون ، ويتفاخرون ويستكبرون بولايتهم للبيت وسقايتهم للحاج ، ولهذا ذمهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وفي آيات أخر بهذا الصنيع .

قال رحمه الله :

السابعة والتسعون: الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتى الله بقوله ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ١٣٤]

أيضا من جاهلية هؤلاء «الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء» يقيمون على الشرك وعلى الكفر ولا يستجيبون للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يطيعون الله عز وجل في أوامره ويتفاخرون بكونهم ذرية الأنبياء ، والله يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [المؤمنون: ١٠١-١٠٢] ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : ((من بطأ به دينه لم يسرع به نسبه)) ، فيتفاخرون بكونهم ذرية الأنبياء وهم في الوقت نفسه معرضون عن نهج الأنبياء وطريقة الأنبياء؛ ألا وهي توحيد الله وإخلاص الدين له وطاعته وامتنال أوامره سبحانه وتعالى .

قال : «فأتى الله بقوله ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾» ؛ عندما يقول القائل منهم "أنا من ذرية إبراهيم" ؛ هل قوله "أنا من ذرية إبراهيم" أن يكون له من صحائف أعمال إبراهيم عليه السلام ؟ أبداً أعمال إبراهيم عليه السلام له وهي التوحيد والإيمان وهو خليل الرحمن ، وأعمالهم هم الشرك والكفر بالله عليهم . ولهذا جاء بقوله ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ؛ الأنبياء كسبوا الإيمان والتوحيد والإخلاص والطاعة لله وبلاغ دينه، وأنتم كسبتم هذا الشرك والباطل الذي تمارسونه ، ولكل ما كسب ، ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف: ١٩] ، كل يجازي بعمله .

قال رحمه الله :

الثامنة والتسعون : الافتخار بالصنائع ، كفعل أهل الرحلتين على أهل الحرث .

«الافتخار بالصنائع» الصنائع التي تيسرت لهم ، فمن تميز بصناعة ما فإنه يفخر على من دونه ويتعالى عليه .
ومثل ذلك بمثال قال : «كفخر أهل الرحلتين على أهل الحرث» أهل الرحلتين: كما في الآية ﴿لَا يَلَابِفُ قُرَيْشٍ﴾ (١)
إِلَابَفِهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿[قریش: ١-٢]﴾ كان لهم رحلتين في السنة ، أعيانهم وتجارهم وأثرياءهم لم رحلتين تجاريتين في السنة ؛ رحلة في الصيف كانت إلى الشام ، ورحلة في الشتاء إلى اليمن ، لغرض التجارة . فأهل الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف يفخرون على أهل الحراثة الذين لهم أرض يحرثونها فهؤلاء يفخرون عليهم يفخرون عليه بأنهم أهل الرحلتين ؛ فهذا من الجاهلية التفاخر بالصنائع . ومثل ذلك عندما يفخر إنسان على زميله بصناعته يقول "أنا عندي وظيفة أنت ما عندك وظيفة" يفخر عليه ، أو مثلاً يقول "أنا عندي تجارة أنت ما عندك تجارة" ، أو "أنا عندي تجارة وأنت تعمل في وظيفة كذا وكذا أنا أفضل منك أنا أحسن منك" تفاخر ، هذا على طريقة هؤلاء وعلى نهجهم التفاخر بالصنائع ، من ميزه الله بصناعه لا يفتخر على الآخرين بل يحمد الله تبارك وتعالى الذي يسر له وأنعم عليه ويسأله تبارك وتعالى المزيد من فضله ، لا أن يجعل هذا الذي من الله عليه وأكرمه به سبباً للتفاخر على الناس والتعالي عليهم ، فإن مثل هذا التفاخر من عمل أهل الجاهلية .

قال رحمه الله تعالى :

التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم كقولهم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ

عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] .

«التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم» أي سلبت قلوبهم وأخذت قلوبهم وأصبح هي أعظم شيء عندهم ، عظمة الدنيا في قلوبهم أي في قلوب أهل الجاهلية . وبين رحمه الله مثلاً يوضح عظمة الدنيا في قلوب هؤلاء ، وهو قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾ ؛ عظيم عنده دنيا عنده ملك عنده جاه ، لا أن يعطى القرآن لرجل أو لشاب يتيم ولد يتيمًا ولا يملك مالاً ، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾ أي له مكانته وله قدره من المال ، وسموا أشخاصاً معينين يقولون: لولا نزل على فلان! فلان معروف بالمال معروف بالثراء معروف بالمكانة ؛ فهذا يدل على عظمة الدنيا في قلوبهم وأن مقياس الأمور العظيمة يرجع إلى من أوتي الدنيا ، ولهذا رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] ؛ هذا الذي عنده مال الله الذي أعطاه ،

والذي عنده النبوة الله الذي أعطاه النبوة ، والفضل بيد الله سبحانه وتعالى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، والله ذو الفضل العظيم ، ﴿أَهُمْ يُقْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ﴾ .

قال رحمه الله :

المائة : التحكم على الله كما في الآية .

«المائة: التحكم على الله»؛ التحكم على الله في قسمه سبحانه وتعالى بين عباده ، ومن تحكمهم على الله سبحانه وتعالى ما جاء في الآية السابقة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لا ينزل على محمد عليه الصلاة والسلام اليتيم الفقير الذي ليس عنده مال ، هناك رجال عظماء كبار أصحاب أموال أصحاب جاه ؛ لو نزل عليهم القرآن ! فهذا تحكم على الله عز وجل ، رحمة الله عز وجل وفضله سبحانه يمن به على من يشاء ، مثل ما قال تبارك وتعالى في آخر سورة الحديد قال: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] ، الفضل فضله والممن منه سبحانه وتعالى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [قصص: ٦٨] ، الأمر له جل وعلا . فهؤلاء من جاهليتهم التحكم على الله ، لماذا أعطى الله فلان كذا ولم يعط فلان كذا؟ تحكم على الله وقول عليه تبارك وتعالى بغير علم .

قال رحمه الله تعالى :

الحادية بعد المائة: ازدراء الفقراء فأتهم بقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] .

ثم ذكر هذه المسألة «ازدراء الفقراء» ازدراءهم: انتقاصهم واحتقارهم والتقليل من شأنهم ، ولهذا من ازدرائهم للفقراء طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يطرد الفقراء الذين عنده ، وقالوا إن كبرائنا وعظمائنا لا يليق بهم أن ينضموا إلى هؤلاء الفقراء ويكونون هم وإياهم شيئا واحداً ؛ فأتاهم بقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ .

ونكتفي بهذا القدر ، والله تعالى أعلم .

وصلّى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .